

دراسات الأدب المعاصر
السنة الرابعة، العدد ١٤، صيف ١٣٩١ش
ص ١٣١-١٤٥

الجواهرى بين وصف الطبيعة الإيرانية والحنين إلى الأحباء

فاطمه گلى * - محمد رحيمى خويگانى **

الملخص

لاشك فى أن الشاعر محمد مهدي الجواهرى من فحول الشعراء العرب العراقيين المعاصرين وهو الذى اختتم به الشعر الكلاسيكى العربى بعد ما لُقّب بمتنبى العصر، فدراسة مضامين شعره المختلفة وخاصة ما يرتبط بإيران موضوع قلماً عنى به الباحثون على الرغم من شهرة الشاعر وشعره؛ انطلاقاً من هذا الدافع يهدف هذا التحقيق الذى انتهج المنهج التحليلي-الوصفي، إلى الكشف عن رؤية الجواهرى تجاه إيران وطبيعتها. ومن أهم ما وصل إليه هذا البحث هو أنه لإيران ولطبيعتها الجميلة الساحرة، ولهوائها النقي، تأثير بالغ فى نفسية الشاعر، كل ذلك دفعه إلى إنشاد أروع أشعاره (حسب قول الشاعر نفسه) فى إيران.

الكلمات الدلييلة: الجواهرى، الطبيعة الإيرانية، الحنين والغربة.

Fatemeh_Goli@yahoo.com

* جامعة إصفهان، إيران. (طالبة فى مرحلة الدكتوراه)

** جامعة إصفهان، إيران. (طالب فى مرحلة الدكتوراه)

تاريخ القبول ١٣٩١/٤/١٨

تاريخ الوصول ١٣٩٠/١٠/٢٤

المقدمة

زار الجواهري بلاد إيران مرات عديدة وأقام بها وببساتينها ومنتزهاتها وتلذذ بما رأى فيها من الجمال والحسن، وهل يمكن لشاعر أن يرى الجمال ولا يصفه؟ فالجواهري وصف إيران في قصائد عدة وسعى وراء تبيان مظاهر الجمال فيها، ولكن الأمر لا يتوقف إلى هذا الحد بل يتجاوزه ونراه يتكلم في بعض الأحيان عن المسائل السياسية في إيران وما جرى فيها من الثورات والمظاهرات غير أن هذا القسم لا يتحدّى عن قصيدة واحدة.

إن هذا الجانب من شعر الجواهري مع ما فيه من البراعة في التصوير والصدق في البيان لم يستطع أن يجذب انتباه الدارسين حتى الآن، فالبحث هذا اختار هذا الموضوع إثر شعوره بهذا الفراغ الواسع.

وانقسم البحث إلى قسمين رئيسيين فالأول يتناول وصف مظاهر الجمال الإيراني في شعر الجواهري والثاني يتطرق إلى ما نسميه الحنين إلى الوطن من خلال شعره في إيران.

موجز عن الجواهري؛ حياته، بيئته، شخصيته وشعره

إن الشاعر محمد مهدي الجواهري، متنبى العصر، شاعر العراق الأكبر، كان من فحول الشعراء العرب العراقيين المعاصرين؛ وإن كثيراً من الباحثين ألفوا في حياة الجواهري وسيرته، فلعل التطرق إليه يعدّ أمراً مطروقا. (بهاء الدين ومراديان، ٢٠١١م: ١٣) فنشير إليه هنا إشارة موجزة:

أبصر النور عام (١٨٩٩م) في مدينة النجف الأغر الأشرف العراقية، ذلك المركز الأدبي الديني الشيعي البارز تحدّر من أسرة عريقة في علوم الفقه والأدب والشعر، عرفت بـ"آل الجواهري". تزوج مرتين: الأولى من ابنة عمه والثانية من أختها، وأنجب سبعة أولاد. (الجواهري، ج ٢، ١٩٨٠م: ٣٥١)

كان ذا ذاكرة عجيبة "يحمل في ذاكرته الكمبيوترية، تاريخ العراق وأحلى وأروع أشعار الشعراء العرب" (حبيب)، فهو يتذكر أحداث وفاة جده لأبيه، إذ كان في عامه الثاني من عمره، كان شديد النهم بالقراءة إلى حين وفاته، فذكر صهره أنه قرأ للجواهري

خمسین کتاباً خلال عامی ١٩٩٤ و ١٩٩٨م. (المندلاوی، ٢٠٠٠م: ٨٧-٩٢) لاشک أن أخلاق الجواهري وشخصيته ومعتقداته مرتبطةً أشدّ الارتباط بالبيئة العراقية، التي لها أهمية بالغة لدى الطائفة الشيعية والمذهب الشيعي الذي يُعدّ العراق مركزه الأول من الناحية الزمنية.

يعترف الجواهري بأن أدبه وشعره اصطبغ بالصبغة القرآنية وبصبغة نهج البلاغة ويعتقد أن أدبياً لم يحفظ ولم يدرس القرآن ونهج البلاغة لا يمكن أن يكون شاعراً ولا كاتباً أبداً؛ إنه بدأ الشعر مبكراً جداً كما يقول: «بدأت اكتب الشعر وأنا في الرابعة عشرة.» (حسن، ٢٠٠٤م: ١٨١-١٨٢)

تنقلّ الجواهري من مهنة إلى أخرى دون أن يستمرّ في واحدة منها مدة طويلة، فقد كان معلماً ونائباً كما كان نقيباً للصحافة ورئيساً لاتحاد الأدباء.

وعدم الهدوء هذا، يرجع إلى شخصيته المتمردة، كما عبر عنها إبراهيم جبرا: «تجربة الجواهري تجربة المتمرد الذي لا بد له من الاستمرار على التمرد.» (العلوی، ١٩٦٩م: ٢٦) كان يؤمن بمسؤولية الشاعر تجاه المجتمع؛ لأن وظيفة الفنانين والشعراء، هي تنقيف العالم.

يتصف أسلوب الجواهري بالصدق في التعبير، والقوة في البيان والحرارة و الإحساس. «إنه أبرز الشعراء طراً، وأغزرهم مادة، وأكثرهم أغراضاً، وأنبثهم قافية، وأعمقهم أدباً، وأشرقهم بياناً.» (العماري، لاتا)

إن الجواهري لم يكن شاعر مناسبات، بل كان شاعراً يبحث عن مناسبة ما ليقول عما في خوالجه. يبدو من أشعاره أنه كان يحب إيران ويحترم الإيرانيين.

نقرأ في ديوانه أنه سافر إلى إيران مرتين: المرة الأولى في عام ١٩٢٤م والثانية في عام ١٩٢٦م وكان قد أخذ بطبيعتها، فنظم في ذلك عدة مقطوعات. (الجواهري، ١٩٨٨م: ١٦) أشعاره هذه نظمها إثر هاتين السفرتين وإن كان له بعدهما رحلة أخرى إلى إيران.

أشعاره في "إيران"

إن المادة التي نجدها في ديوان الجواهري عن إيران وطبيعتها والتي نظمت بتأثيرها،

قليلة بالقياس إلى الموضوعات الاجتماعية والسياسية التي تكاد تشكل أعظم الأعمال الأدبية لهذا الأديب الفنان؛ ولكن كثيرة بالقياس إلى مدة إقامته في إيران! وردت أشعار الجواهري في إيران، في ديوانه حسب التسلسل الزمني، وفي أغراض شتى؛ توزعت في هذا البحث على قسمين:

- أ. ما نظمه حول الوقائع والأحداث السياسية في إيران.
- ب. ما نظمه حول تأثيره بطبيعة إيران والتلذذ بجمالها.

أما الأول فقليل جدا، بحيث لا يجدر بالبحث ولا الدراسة، فنكتفي بذكر مثال منه فقط، فإن النجف الأغر مسقط رأس الجواهري وله مشتركات عديدة مع الإيرانيين من ناحية دينية وثقافية وأدبية وحتى من ناحية سياسية؛ (الحمداني، ٢٠٠٦م: ١٣) فترى أنه في بعض الأحيان، واكب الأحداث في إيران؛ ودبج فيها بعض القصائد ولكنها قليلة جدا لاتجدر بالدراسة ولكن تأتي بجانب منها وهو قصيدة "وم الشهداء في إيران" التي نظمها إثر انتفاضة الشعب الإيراني على حكم الشاه (عام ١٩٥٢م)؛ التي أتت بمصدق إلى الحكم، ليعلن تأميم النفط؛ وهي نظمت بأمل أن تكمل ولم يحوها ديوانه:

سَأَلْتُ لَتُمَلِّي مَا تَشَاءُ دِمَاؤُهَا وَهَوَتْ لِتَرْفَعَ شَأْنَهَا شُهَدَاؤُهَا
وَإِنصَاعَ مَخضُوبَا يُرَكِّزُ نَفْسَهُ مَا بَيْنَ أَلْوِيَةِ الشُّعُوبِ لَوَاؤُهَا

(الجواهري، ج ٤، ١٩٧٣م: ١٢٤)

في هذين البيتين نرى كيف يراقب الجواهري الوقائع في إيران وهو في العراق؛ وكيف يهتم بالأحداث السياسية ونظم الأشعار فيها، لأجل الحرية وكرامة الشعوب؛ إضافة إلى تكرار حرف الشين الذي ورد ثلاث مرات في هذين البيتين وما له من أثر في نفس السامع.

فترى كيف يكرم أبناء إيران الذين دافعوا عن وطنهم واستشهدوا لأجله؛ ويشبههم بالكواكب النيرات في سماء البصيرة:

ضَاءَتِ وَبِالْمُهْجَاتِ تَفْرَشُ أَرْضَهَا بِالمَكْرَمَاتِ النِيرَاتِ سَمَاؤُهَا

(نفس المصدر: نفس الصفحة)

كان الجواهرى يحترم الشهداء احتراماً بالغاً «يجعل من الشهادة جزءاً ضرورياً من تجربته السياسية. إنها الفداء الذى يبحث عنه. الشهيد لديه ضالة منشودة، إنها عشقه الأول والأخير.» (جبر، ١٩٦٩م: ٦١)

أما الثانى فهو شعر جميل مزيج من وصفه للطبيعة الإيرانية وحنينه إلى أحبائه فى العراق، فالبحث يتناول الوصف أولاً ويتطرق إلى موضوع الحنين ثانياً، هادفاً للكشف عن أصالة شعر الطبيعة عند الجواهرى أو عدم أصالته.

وصف الطبيعة الإيرانية

كانت رحلات الجواهرى كثيرة، ولكنه لما سافر إلى إيران، شغف بطبيعتها؛ فإنه يقول عن نفسه: «حتى إذا ما ذهبت إلى إيران للاصطياف لأول مرة فى العشرينات كانت الجبال الشاهقة تهزنى، أما البيئة النجفية فكانت وراء قصائدى، فالحرمانات والتزمت ولدت لدى مفهوماً إنسانياً تقيضاً ورغبة فى التغيير، وهو ما رافق قصائدى...» (www.jwahri.net)

فتلذذ بحسن جوها اللطيف وبساتينها الخضراء؛ فلم يجد لبيان ما كان فى ضميره، ساحة أرحب وأوسع من ميدان الشعر؛ فوصف "إيران" وما فيها من مظاهر الحسن والجمال للطبيعة الفاتنة الساحرة، فى قصائد كثيرة تؤتى المجال للباحث أن يكشف من وراءها الكثير من الآراء والجماليات عند الجواهرى، من هذه القصائد:

١. على حدود فارس ٢. على كِرِنْد ٣. الريف الضاحك ٤. بين قطرين ٥. الأحاديث شجون ٦. بريد الغربية ٧. الذكرى المؤلمة ٨. البادية فى إيران ٩. الخريف فى فارس.

وصف الفصول

خص الشاعر الكثير من أبياته بوصف الفصول الإيرانية وما يرى فيها من الجمال والحسن، فأول فصل اجتلب انتباهه وأعجبه هو الربيع، فالبحث هنا يدرس هذا الجانب من شعر الجواهرى حتى يبين ما قاله فيه.

وصف الربيع

الربيع عنده هو الفصل المفضل الجميل وما إن رأى جماله حتى يذكر الله ويذكر جمال الجنة وهو دائما مسحور بجماله ومعجب بأزهاره ومعتزف بحسنه البارِع، وهذا الحب جعل الجواهرى أن يختص الكثير من قصائده بوصف الربيع؛ فيخاطب خليليه على سبيل الشعر الكلاسيكى فى قصيدة "الذكرى المؤلمة" ليثير فيهما الشوق إلى إيران وجمالها الطبيعي:

خليلى أحسن ما شاقن بفارس هذا الجمال الطبيعى

(الجواهرى، ج ١، ١٩٨٢م: ١٤٨)

ويدعوها مرة بعد أخرى ليشاهدا معه هذا الجمال؛ فيصف لهم فصل الربيع ومتون الجبال التى تجرى عليها المياه كمداب الدموع، والرياض الخضراء التى تضحك:

إلى الآن تجرى مُتون الجبال علينا بمثل مذاب الدُموع
هَلْما معى نحو هذى الرياض نجددُ عهداً بفصل الربيع
فقد أضحّت الأرضُ مخضرةً تضحكُ عن شمل حسن جميع

(نفس المصدر: نفس الصفحة)

ثم يأتى بتعبير أنيق جداً، لاستيفاء حق هذا الحسن؛ فيعتبر سرعة مروره على هذه الطبيعة ضيماً بحقها:

ومهلأً فظلمُ لهذا الجمال نمر عليه بلحظٍ سريع

(نفس المصدر: نفس الصفحة)

فعبارة "مهلاً"، توحى أن قائلها قد يضطره فوات الفرص - وهو غاية التلذذ بجمال الطبيعة هذه - إلى أن يصوغ بناءً خاصاً لأداء المعنى المراد.

خليلى إن جيوش الغمام عرفن لفارس حسن الصنيع

ألم تريا كيف ضرعُ الغمام يرق لهذا النبات الرضيع؟

(نفس المصدر: نفس الصفحة)

فراه يخاطب خليليه مؤكداً لشدة إعجابه بإيران ونزاهتها وصفائها واشتياقه إلى

وصفها لهما؛ وعلى هذا الأساس يتعجب من غزارة الماء، ويشبه لون الأزهار فى اخضرار الأرض بالوشى البهيج:

وَلِمَ لَا تَرِيْعُ بِأَرِيْفِهَا بِلَادِ تَسِيْلِ بِمَاءِ مَرِيْعٍ؟
خَلِيْلِيَّ مَا فِى بِقَاعِ الْوَجُوْدِ أَبْهِيْجُ مِنْ وَشَى هَذَا الْبَقِيْعِ

(نفس المصدر: نفس الصفحة)

وهل استطاع الجواهرى أن يضبط فى القصيدة جميع مظاهر البهجة والجمال لها؟ كلا ولا يمكن لأى وِصَافٍ أن يحدد بسهولة كافة العوامل المؤثرة فى جمال إيران! إنه صور مظاهر الحسن والجمال تصويراً واضحاً لأحيائه، ثم انتهى إلى الاعتراف بفضل إيران على كل بلاد العالم وعندما وصل إلى هذه النقطة، قال بجرأة عجيبة:

بَنَى الْفَرَسَ فَارْسُكُمُ لَا الْعِرَاقَ وَزَاهَى رُبُوعِكُمْ لَا رُبُوعِي
وَمَا ابْهَجَ الشَّمْسَ عِنْدَ الْغُرُوبِ يَحَى رُبَاهَا وَعِنْدَ الْاُطْلُوعِ
خَلِيْلِيَّ مَا غِيْرَتَ فَارِسُ مَحَلَّ الْبَصِيْرِ بِكُمْ وَالسَّمِيْعِ
وَلَوْ شِئْتَ حَمَلْتَ بِرَقِيْعَةٍ تَزَفُّ لَكُمْ مِنْ رَجِيْفِ الضُّلُوعِ

(نفس المصدر: نفس الصفحة)

فبناء على هذا، يرجِّح الجواهرى طبيعة إيران ويصفها وصفا كاملاً فى قصائده؛ وينشد أشعاراً متقنة فى وصفها فى قصيدة "فى طهران":

قَدْ سَمِعْنَا بِفَارَسٍ وَكَفَانَا حَسَنَ مَرِيْبِهَا عَنِ الْمَسْمُوعِ

(نفس المصدر: ٢٠٠)

ويقول فى مكان آخر:

لَا سَوْحُهَا وَهِيَ جِنَانِ زَهَتْ بِكُلِّ مَا رَقَّ جَمَالاً وَرَاقٍ...

(نفس المصدر: ١٤٦)

ويستمر فى وصف حسناتها، ويسبح الله الذى خلق هذا الحسن والجمال وينزهه:

وَلَا الرَّبِّيَّ مَخْضَرَّةً تَزْدَهَى حَسَنًا حَوَاشِيَهَا اللَّطَافُ الرَّقَاقِ

حُطَّتْ عَلَى أَوْسَاطِهَا خُضْرَةٌ سَبْحَانِ مِنْ قَدَّرَ هَذَا النِّطَاقَ
تَنَالُ مِنْ شَوْقِي وَهَلْ سَلْوَةٌ لَمَنْ قَضَى اللَّهُ لَهُ أَنْ يُشَاقَّ...

(نفس المصدر: نفس الصفحة)

إنه يحسبها (إيران) جنة لا يستفاد من حظها استفادة كاملة، فتضاهي خمرا:
وما فارسٌ إلا جنانٌ مُضَاعَةٌ ويا رَبَّ خَمْرٍ لَمْ تَجِدْ مِنْ مُصْفَقِ

(نفس المصدر: ١٤٩)

ويواصل حديثه حول إعجابه بها، والتناذره بهبوب الرياح، ومجرى المياه الغزيرة،
ويد الغيث الواهبة التي أتت من السماء، لتهب الأرض حسنا وبهاء:
هنيئاً فلا مسرى الرياحِ بخافتٍ وبىُّ ولا مجرى المياهِ بضيقِ

وصف الشتاء والصيف

يتجلى هذا الغرض في أشعاره تجليا خفيفا، فالشاعر يصف الشتاء والصيف من
خلال أغراض أخرى، مثل ما نرى في قصيدة "على حدود فارس" حيث يصف
الشتاء وثلجه الذي يعطى الصيف رونقا وجمالا:

صَبَّ الشِّتَاءُ الثَّلْجَ فَوْقَ الرَّبِيِّ يَرْفَعُهُ فِيهَا طَبَاقاً طَبَاقَ
حَتَّى إِذَا الصَّيْفُ أَنْبَرَى وَاعْتَدَتْ تُصَبِّحُ الْأَرْضَ بِكَأْسٍ دِهَاقٍ...

(نفس المصدر: ١٤٦)

والشاعر هنا يصف لنا مجيء الصيف بعد أن تنتقضى أيام الشتاء وتذوب الثلوج
على الجبال ونراه في قصيدة أخرى يصف مجيء الشتاء بعد الصيف بقوله:

مَضَى الصَّيْفُ مُقْتَاداً مِنْ وَجَاءَ الشِّتَاءُ زَحْفاً إِلَيْهَا بِفَيْلِقِ
كَأَنَّ الثَّلُوجَ النَّازِلَاتِ عَلَى الرَّبِيِّ عَمَائِمُ بَيْضٌ كُورَتْ فَوْقَ مَفْرِقِ

وكأنه لا يوجد فصل فيما بين هذين الفصلين! مهما يكن من شيء فوصف الشاعر

لتغيير الفصول وصف جميل بارع.

وصف الخريف

ومن الفصول التى وصفها الجواهرى هو فصل الخريف، فالخريف عنده فصل جميل يسحر العيون ولكنه يبشر القائلين بفصل أجمل هو فصل الربيع، ويستهل قصيدة "الخريف فى فارس" بوصف خريفها، قائلاً:

يا هائجين لخريفِ فارسٍ ما تصنعونَ لو أتى ربيعُهُ...
 هذا جمالُ زانهُ نورُ الفضا لا كجمالِ حِفْظِه يُضيعه
 لله دَرٌّ دَرَّةٌ من مُرْضِعٍ كلُّ الثرى ومن به رضيعه

(نفس المصدر: ٢٠١)

وصف الريف

مع أن وصف الريف هو وصف ربيعهِ وجناته ومظاهره الطبيعية الأخرى ولكننا نحس بأن هذا الوصف لهميزات تميزها عما ذكرنا من قبل، فيختص الشاعر قصيدة "الريف الضاحك" التى من خواطر الشاعر وهو يمر بمصائف "همدان" وأريافها بوصف جمال الريف؛ ونشرت مرة باسم "خواطر الشعر فى فارس على العراق العجمى" و مرة أخرى باسم "ما بين العراقين"؛ وهذه القصيدة من قصائده الفريدة فى إيران؛ و من صفحات شعره المشرقة، التى تعيد إلى ذهن القارئ، غرر القصائد العربية العامرة فى هذا الباب، لما فى بنائها ومادتها من قوة وبراعة؛ وأنت إذا ألقيت نظرة عليها، بدا لعينيك منها بناء شامخ:

كلُّ أَقْطَارِكِ يا "فارس" ريف طابَ فصلاكَ: ربيعٌ وخريفٌ
 لا عرتُ أرضكِ من لطفٍ فقد ضَمِنَ الحسنَ لها جوُّ لطيف
 يا رياضاً زهرتَ فى فارسٍ شكرتَكنَّ عُيونٌ وأنوف...
 من جمالِ حُطِّ معناه على فارسٍ واختصَّتِ الأرضَ حروف..
 صنعةٌ للفرسِ فى الوشى ولا مثلَ ماوشى بها الروضُ المفوف..

فارسُ أينَ وأَلفُ الصِّبا أو هل يبقى على النَّأى أليفٌ؟

(نفس المصدر: ١٥٠)

وصف المصائف

خص الجواهرى جانباً من وصفه للطبيعة بوصف المناطق والمصائف الإيرانية الجميلة ومثلاً نراه يخص بالذكر المناطق ذات الطقس العالية في إيران، في قصيدة "در بند" و"الشممرات":

نزلاً ففرقنا هموماً تجمعت أبى صفو "شممرات" أن تجمعا

(نفس المصدر: ١٩٧)

ويسمى "در بند" أم الحسن، إذ يقول:

رعى الله أم الحسن "در بند" إننا وجدنا بها روضاً من الصفو ممرعاً

(نفس المصدر: نفس الصفحة)

ويقول مخاطباً فارس في قصيدة "بريد الغربية" (صفحة ١٩٨ - ١٩٩):

هى "فارس" وهواؤها ريح الصِّبا	وسماؤها الأغصان والأوراق
ولِعتْ بها عُشَّاقها وبليَّةٌ	فى الشرق إن ولِعتْ بها العشاق
سالت بدفاق النُّزار بقاعها	وعلى بنيتها شحت الأرزاق
يا بنت "كومرث" أقلّى فكرةً	فلقد أضرَّ برأسك الإخفاق
وتطلَّعى تَبَيَّنَى الفجرَ الذى	تتوقعينَ وتنجلي الآفاق
لى فى العراق عصابةً لولاهم	ما كان محبوباً الىّ عراقٌ
لا دجلةً لولاهم، وهى التى	عذبت، تروق ولا الفرات يُذاق
شمران تُعجِبُنَى، وزهرها روضها	وهواؤها، ونميرها الرِّقراق
متكسراً بين الصخور تمُدّه	فوقَ الجبال من الثُّلوج طباق
وعليه من ورقِ العُصونِ	ممدودةٌ ومن الظلالِ رُواق

فى كل غصن للبلابل ندوةً وبكل عودٍ للغنا إسحاق
كانت منايّ فلم تُعقْ وعجيبةً أنى أحب منىّ فلا تُعق
سرّ الحياة نجاحُ آمالِ الفتى أما المماتُ فسرهُ الإخفاق

وهى القصيدة التى أثيرت عند نشرها ضجة كبيرة، وطرد من أجلها وفصل من الوظيفة فى وزارة المعارف؛ لأنه يقول فيه: «إنه لا يحب العراق من أجل العراق وحده، بل لأن فيه مواطنين وأخلاء تهمّه أوضاعهم وأحوالهم.» (بهاء الدين ومراديان، ٢٠١١م: ٥٦)

الحنين إلى الأحياء

كل من يقرأ ما قاله الجواهرى فى إيران يشم منه رائحة الغربية والألم والفراق، فهذا طبيعى لأن إيران ولو كانت له مأمّن وملجأ ولكنها ليست وطنه، فنراه فى أوّل قصائده "على حدود فارس" التى نظمت بداية التعرّف على إيران؛ يكثر من ذكر آلامه وحنينه إلى العراق الحبيب، (حور، ٨٩-٩٠) فاستهلّها بذكر اشتياقه إلى زيارة أحيائه فى العراق و خاطبهم بقوله:

أحبابنا بين محانى العراق كلفتم قلبى ما لا يُطاق
العيش مرّ طعمه بعدكم وكيف لا والبعد مرّ المذاق
يكفيكم من لوعتى أننى فى فارس أشتاق قُطرَ العراق..
لا سوحها وهى جنان زهت بكلّ مارقٍ جمالا وراق
ليس يقى النفس امرؤ من هوى إلا إذا كان من الموت واق!!

(الجواهرى، ج ١، ١٩٨٢م: ١٤٦)

يرى الجواهرى أن "البعد" وهو عامل الغربية، طعمه مرّ وهذه المرارة تجعل عيشه فى إيران مرّ مع أن إيران تتمتع بما ذكره الشاعر من الحسن والجمال!! لقد أحبّ إيران حبّا شديدا، حتى ظنّ أنّه من سكن إيران، لا بدّ أن ينسى كلّ شيء؛ فاستغرب

صدق ودّه لأحبائه واللوعة من فراقهم؛ فأتى بخير شاهد على هذا الحبّ: بأنه يذكر أحبائه وهو في إيران و يشناق إليهم مع أنه في جنة "فارس" وهذا غاية العجب ويعتبر نفسه مسحورة من شدة الجمال الفاتن في إيران، ومن الطبيعيّ جداً أن يظل كل إنسان مفتوناً بهذا الحسن ولا سبيل له إلا أن يكون له واق من الموت.

والجدير بالذكر أن في المصراع الأخير أيضاً إشارة قرآنية لطيفة إلى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾ (الغافر: ٤٠)

وأما في قصيدة "الذكرى المؤلمة" (التي نظمها عند تركه العراق لأول مرة مصطافاً في إيران) فيتشوق للعراق أيضاً، فالمنفى في شعره امتداد للغربة في الوطن، يجسّد الأبعاد النفسية والاجتماعية والسياسية. (اليحيى، ٢٠٠١م: ٢٨٧)؛ فتصوّر هذه القصيدة، آفاقه النفسية إذ يقول:

أقول وقد شأقتني الريحُ سحرَةً وَمَنْ يَذْكُرِ الْأُوطَانَ وَالْأَهْلَ يَشْتَقِ..
 وهل ننتشى ریح العراقِ وهل لنا سبيلٌ إلى ماء الفرات المصفقِ
 حبيبٌ إلى سَمْعِي مقالةٌ "احمدٍ" "أحبابنا بين الفراتِ وجَلقِ"
 فوالله ما روحُ الجنانِ بطيبٍ سواكم ولا ماءُ الغوادي بريق...

(الجواهري، ج ١، ١٩٨٢م: ١٤٨)

ويعدّ سفره إلى إيران من القضاء الإلهي، كما يعتبر الفراق والابتعاد عن العراق مصيبة، تكمن وراءها حكمة إلهية، أرادت للجواهري أن يسكن في إيران، ويتمتع بنعمها الوافرة (نفس المصدر):

خليلي لا تلحى سهامُ مصائبٍ أتحت فلولا حكمه لم تُفوقِ
 تعنف أحكام القضاء حماقةً كأن القضاءَ الحتمَ ليس بأحمقِ

وهكذا واصل هذه الطريقة في قصيدة "بين قطرين"، واستهلها بتوصيف المطر والأراضي الخصبة:

سقى تُربها من ريقِ المزنِ دياراً بعثنَ الوق والشوقُ قتالُ

خليلى أشجى ما ينغص لذتى مناخ أقامته عيال وأطفال
خليلى لو لم ينطق الوجد لم أقل فقد كذبت قبلى لذى الحب أقوال
فمن شاقه برد النعيم بفارس فأتى إلى حرّ العراقيين ميال

(نفس المصدر: ١٥٢)

فيتلذذ الشاعر بذكر "فارس" وهواها ويحسبها جنة جميلة، ولكنه يميل إلى أحبائه فى العراق؛ فالجواهرى يؤذيه كونه فى إيران واستمتاعه من الجو النقى اللطيف وكون أسرته فى العراق و هم فى مناخ غير مطلوب وجو غير صافٍ.

ويلاحظ هذا الحنين إلى الوطن أيضا فى قصيدة "الأحاديث شجون" أو "بين الغربية والوطن" أو "حبي عراقى دين"؛ فنراه مذبذبا بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ لا يدرى أ يختار العراق أم إيران:

جددى ریح الصبا عهد الصبا وأعيدى فالأحاديث شجون..
سألونا كيف كنتم؟ إن من دأبه ذكركم كيف يكون...

(نفس المصدر: ١٥٥-١٥٦)

وفى قصيده "وفى الربيع" أيضا يعتبر أحبائه فى العراق سببا لحنينه إلى وطنه:
أحبائنا فى الكرخ هل من زورة لنحيل جسم بالفراق نحيفه
أهوى لأجلكم العراق فمئيتى فى قربكم لاخصبه أو ريفه

(نفس المصدر: ١٥٧)

إذا أحب الجواهرى "العراق" فهو لأجل أحبائه لا لأنه وطنه! هذا شىء عجاب يشم رائحة التأثير البالغ الإيراني على الشاعر.

فيرى أمله الوحيد، وأمنيته المنشودة فى لقاء أحبائه؛ لافى خصب العراق أو ريفه.

ويواصل وصف طبيعة فارس، ويقول:

وسلى قلبى لم ضاقت به فارس وهى رياض لا سجون
ضحكت فيها من الروض وجوه وجرت بالسلسل العذب عيون

واكتست بالحسن هامتُ الربى
كيفما شاء لها الغيثُ الهتون
حبذا فارسٌ من مُستوطنٍ
عافه أهل وخلاهُ القطين

(نفس المصدر: ١٥٥)

وببارك المواطنين في فارس و الذين اتخذوا إيران مسكناً لهم ملوحاً إلى أن إيران ليست وطنه وهذه الإشارة تشتم منه رائحة التحسر والحرمان.

النتيجة

١. كانت للجواهري صلة عاطفية وثيقة بإيران، ولأجل هذه الصلة العاطفية، نجده تناول وصف الطبيعة الإيرانية الخلابة في شعره.
٢. للربيع الإيراني دوره في أشعار الجواهري فهو دائماً يترنم بترنم عسافيره وجداوله ويتغنى مع سحبه الممطرة السوداء.
٣. يبدو أن الجواهري اهتم بوصف ذهاب الشتاء ومجيء الصيف لأنه يرى في هذا التداول مضي عمره وانقضاء فرصه المتاحة في إيران.
٤. يتغنى الجواهري في مصائف إيران مع تغنى البلابل والعصافير ويسعى في أشعار كثيرة أن يصف جمال هذه المصائف الطبيعية.
٥. طبع شعر الجواهري في إيران بطابع الحزن العام والتحسر على الوطن والحنين إلى الأحباء، وهذا طبيعي بالنسبة لشاعر يرى نفسه في راحة ورخاء ولكن وطنه الذي احتضن أحبائه كله في صعوبة وجفاء.

المصادر والمراجع

- ١) القرآن الكريم.
- ٢) بهاء الدين، جعفر ومراديان، على أكبر، ٢٠١١م. الالتزام في شعر محمد مهدي الجواهري. بيروت: دار الكاتب العربي.
- ٣) جبرا، إبراهيم جبرا. ١٩٨٢م. النار والجوهر، دراسات في الشعر. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ٤) الجواهري، محمد مهدي. ١٩٧٢-١٩٨٠م. ديوان الجواهري. جمع وتحقيق إبراهيم السامراي

- بالاشتراك مع مهديّ المخزومي وعلى جواد ورشيد بكتاش. بغداد: دار الرشيد.
- (٥) حبيب، كاظم. فى أربعينية الجواهرى الكبير:
- 6) <http://www.aliraqi.org/forums>
- (٧) حسن، ديب على. ٢٠٠٤م. الجواهرى رحلة الشعر والحياة. تقديم سليمان سليم البواب. بيروت: مؤسسة المنارة.
- (٨) حورّ، محمد. ١٩٩٨م. فلسطين فى شعر الجواهرى وقراءات فى الأدب الحديث. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- (٩) الحمدانى، حامد. ٢٠٠٦م. ثورة ١٤ تموز فى نهوضها وانتكاسها وسقوطها. السويد: نشر فيشون ميديا.
- (١٠) العلوى، هادى. ١٩٦٩م. محمد مهديّ الجواهرى دراسات نقدية. بغداد: مكتبة الأندلس.
- (١١) العمارى، مراد. لاتا. قصة قصيدة التتويج التى نغصت حياة الجواهرى:
- 12) <http://www.Almawsem.net/diwan>
- (١٣) غدیر، على. لاتا. فى ذكرى رحيله ... الجواهرى ... آخر العمالقة الخالدين:
- 14) <http://www.aliraqi.org/forums>
- (١٥) محفوظ، حسين على. لاتا. بيت الجواهرى:
- 16) <http://www.jwahri.com>
- (١٧) متقى زاده، عيسى وعلى بشيرى. ١٣٩١ش. «الأثر الفارسى فى شعر عبدالوهاب البياتى». فصلية إضاءات نقدية. السنة الثانية. العدد ٦. صص ١٥٠-١٢٩.
- (١٨) المندلاوى، صباح. ٢٠٠٠م. فى رحاب الجواهرى. الطبعة الأولى. دمشق: دار علاء الدين.
- (١٩) ميرزائى جبارى، فهيمه وسيدمحمد رضا ابن الرسول. ١٣٩١ش. «وصف طبيعت در ديوان منوچهرى وطغرايى». فصلنامه مطالعات ادبيات تطبيقى. السنة السادسة. العدد العدد ٢١. صص ٢٢٣-٢١٧.
- (٢٠) هوارى، زهير. ٢٠٠٣م. جذور العلاقة العاملية بالنجف وحصاد قوافل العلماء. جريده السفير، لبنان:
- 21) <http://www.bintjbeil.com>
- (٢٢) البيحى، فرحان. ٢٠٠١م. أزمه المواطنة فى شعر الجواهرى. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.